

سمات العلم والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية

د. عبد الكريم اليافي

يتألف هذا البحث من ثلاثة مقاطع : نشوء التعليم وتكامله في حضارة الاسلام ومكانة الجامعات في العصر الحاضر وخصائص العلم والتعليم في تلك الحضارة .

★ ★ ★

قلّ أن وجدت حضارة من الحضارات في الزمن القديم أو الحديث رفعت من قيمة العلم وحثت على طلبه وبثته كالحضارة العربية الإسلامية . ذلك أنه لما بزغ نور الاسلام دفع الناس جميعاً على اختلاف الأحوال والأعمار الى طلب العلم والنهوض لتلقيه والى بثه وتعليمه . أول الوحي الى الرسول الكريم طلب قراءة سطور النور المنزّل . فلقد كان الوحي في رأينا تلقياً سمعياً وقراءة عينية : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، « ولقد رآه بالأفق المبين » ، وما هو على الغيب بضنين » ، كما كانت فاتحة الوحي منته جل وعلا على الانسان بتعليمه ما لم يعلم .

ومنذ تبشير الدعوة اتخذ الرسول دار الأرقم بن عبد مناف بن سعد المخزومي مركزاً له ولأصحابه حين كانت الدعوة سرية . فكان المسلمون يلتفون حول الرسول فيها يتلون كتاب الله ويتعلمون مبادئ الاسلام ويحفظون ما يتنزل من سور النور الكريم وآياته . ثم أصبح منزل الرسول في مكة بمنزلة المعهد الذي يتلقى فيه المؤمنون القرآن ويستمعون الى الحديث الشريف . ثم غدا المسجد في

المدينة غب الهجرة المكان المعهود للعلم والفتوى والقضاء الى جانب أداء العبادات فيه وعرض الأمور العامة على المسلمين . بل غدا كل مجلس يجلسه الرسول ويلتقي فيه أتباع الرسالة مناسبة للتعليم .

ولعل أهل الصفة الفقراء كانوا من أوائل مدارس الاسلام . حدث عريفهم أبو هريرة كما جاء في « حلية الأولياء » : « قال قال رسول الله ﷺ في حديث تحدّثه يوماً : لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي اليه مقالتي هذه ثم يجمع اليه ثوبه الا وعى ما أقول فبسطت نَمِرَة (بركة من صوف) علي حتى اذا قضى النبي ﷺ مقالته جمعتها الى صدري . فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء » . وعندنا ان بسط الثوب وجمعه اذ ذاك من نوع التنبيه وتركيز الفكر . كذلك تحدّث أبو هريرة كما جاء في الحلية أيضاً الى من هاله كثرة حديثه عن الرسول : « انكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبي ﷺ وتقولون ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون عن النبي ﷺ مثل حديث أبي هريرة ، وإن اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق (ضرب اليد على اليد في تمام البيع والشراء) بالأسواق وكان يشغل اخواني من الأنصار عمل أموالهم وكنت امرأ مسكيناً من مساكين الصفة ألزم النبي ﷺ على ملء بطني فأحضر حين يغيبون وأعي حين ينسون » . كذلك كانت أمهات المؤمنين وفي طليعتهم السيدة عائشة والصحابيات مدارس النساء الأولى .

وقد وقع في غزوة بدر لفيف من المشركين في الأسر فكان فداء الأسير الذي يكتب أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة .

ذلك أن للعلم في ذاته قيمة كبرى وهي المعرفة . وهو فوق ذلك نوع من أنواع القوة ووسيلة من وسائل النضال والكفاح كفاح الشرك ونضال الظلم ، وهو أيضاً سبيل من سبل العلاء والتقدم .

انه ميراث النبوة . العلماء ورثة الأنبياء . سواء أكان ذلك في العلاء والتقدم ، أم في النضال والكفاح ، أم في القوة والمعرفة .

وقد جرى الخلفاء الراشدون والصحابة على هذا السنن ، سنن رسول الله . ثم غدت الندوات الفكرية تنعقد في المساجد وفي بيوت الأفراد يؤمها الذين يرغبون في

مدارسة العلم . وهناك أخبار كثيرة على ذلك . نذكر منها ما روي عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى في منتصف القرن الأول الهجري اذ كان له « بيت فيه مصاحف يجتمع اليه القراء قلماً تفرقوا عنه الاغن طعام » . وربما كان هذا البيت أول المكتبات في العهد الاسلامي الأول . وقد شغل الخلفاء الأمويون في ابان عهودهم بالفتوحات أكثر منهم شغلا بالعلم . اللهم الا الخليفة عمر بن عبد العزيز . وظهر الاهتمام الشديد لدى الأمير الأموي خالد بن يزيد الذي يروى عنه أنه اهتم بالصنعة وبالكتب التي تبحث فيها فاخترت نهجاً قوياً في جمع الكتب والمعارف . وألف هو نفسه كتاباً هو أول مصنف عربي في هذا العلم . وهكذا ظل المتعلمون والعلماء يحرصون على تلقي العلم وعلى نشره ويجمعون الكتب ويتداولونها ويعلمون شأنها في عهود الصحابة والتابعين وتابعي التابعين . ولكن ما ان لاح العصر العباسي حتى تبوأ العلماء أعلى منزلة . هذا أبو جعفر المنصور ينشئ خزانة كتب في قصره ويجمع العلماء ويعهد اليهم في تأليف الكتب وترجمتها . وها هو ذا الرشيد من بعده ينشئ بيت الحكمة وهو مركز أصبح محج العلماء والأدباء . ثم يجيء عصر المأمون وهو ذروة في التاريخ العربي اهتماماً بالعلم والمكتبات . نظم بيوتاً للحكمة اجتمع فيها الكثير من كتب الأقدمين ثم أطلقها للقراء يقرؤون فيها ويتعلمون ووضع لهم من يقوم بأمورهم فنصب خزاناً يدعى الواحد منهم صاحب بيت الحكمة . ولم يقتصر على ذلك بل كان يدعو الى ندوات ومجالس للأدباء والعلماء تدار فيها المناقشات ويشارك فيها . وقد شغل العلم قلبه وشغل عقله حتى انه رأى في منامه كما يروي ابن النديم في فهرسته أرسطاطاليس . وهكذا رغب في استحضار الكتب اليونانية وترجمتها لتلبية لحاجات الدولة العلمية .

يروى أن الخليفة المعتضد كان مع ثابت بن قرة الحاراني في بستان له ويده على يد ثابت . فانتزع يده بغتة من يده ثابت ففرع من ذلك فقال له المعتضد : يا ثابت أخطأت حين وضعت يدي على يدك وسهوت فان العلم يعلو ولا يعلى .

قصة المعاهد العلمية والمكتبات ومكانة العلم في الحضارة العربية مستفيضة وواسعة . ولا بد لنا من أن نذكر أطرافاً منها في القسم الأول من هذا الحديث .

لما استولى السلاجقة على بغداد وعلى أغلب العالم الاسلامي ظهر منهم نظام الملك أبرز وزراء ذلك العهد . كان هو نفسه عالماً عرف مكانة العلم فأنشأ

المدارس الكثيرة التي نسبت اليه في بغداد وبلخ ونيسابور وهرات وأصفهان والبصرة ومرو وآمل والموصل كما يذكر السبكي في طبقاته . بل يقال ان له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة (طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٣٧) وأمد هذه المدارس جميعها بالأساتذة والأموال والكتب .

وكانت نظامية بغداد أولى تلك المدارس وأهمها . ومن المعروف المتداول أن نظام الملك لمح في مجالس معكسره الذي أقامه قرب نيسابور عبقرية الغزالي وعلمه حين قدم عليه فولاه التدريس في نظامية بغداد مع غيره من العلماء الأعلام . وذكر السبكي نقلاً عن الغزالي « علت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة » . وهذا تنويه بمكانة العلم واحترام العلماء وبصورة من صور المجد الذي تبوؤه اذ ذاك .

ثم أنشأ المستنصر بالله الخليفة العباسي المدرسة المستنصرية في بغداد سنة ٦٢٥ فكانت عظمة الشأن مستفيضة النفع .

وعند قيام امارات الأتابك والشاهات على أنقاض السلاجقة بقي الشنف الكبير بالعلم لدى الأمراء والملوك الذين خلفوهم . ومن أبرزهم نور الدين محمود زنكي الذي غدا ملكاً لسورية فقد رعى العلم والثقافة رعاية مثلى على الرغم من نيران الحروب الصليبية وزيادة على تدبيره المحكم للقضاء على أولئك الغزاة . ومن المناسب أن نشير استطراداً الى أمره بصنع منبر فائق الصنعة هدية منه الى المسجد الأقصى عند تحريره من الفرنجة . وقد أقامه في المسجد خليفته صلاح الدين فبقي تحفة فنية رائعة الى عهد قريب حين شب الصهاينة الحريق في الجامع فاحترق المنبر . كان لنور الدين مجالس عظيمة لأهل العلم عنده وكان يجمعهم للبحث والنظر ويستقدمهم من البلاد الشاسعة وقد توطدت علاقته بالامام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون الموصلية الأصل حين التحق به في مدينة حلب فنال حظوة عنده وأقام السلطان له مجموعة من المدارس في حلب ودمشق وحماة وحمص وبلبك ومنبج وفوض اليه الاشراف عليها والتدريس فيها وتسمية من يراه أهلاً لتولي التدريس فيها وعرفت بالمدارس العرونية . وبعد وفاة نور الدين عام ٥٦٩ اطمأن اليه صلاح الدين فولاه قضاء القضاة وصحبه في وقعة حطين .

وكان الحال اذ ذاك أن كل عالم أو متخصص متميز في علم من العلوم يبني

مدرسة ويقف عليها وقفاً ويجعل فيها داركتب ويشرف هو نفسه على التدريس فيها وينتدب معه من يراه أهلاً لذلك . وإذا رجعنا الى كتاب « الدارس في تاريخ المدارس » لمؤلفه عبدالقادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ وجدنا في جزءيه الكبيرين عدداً كبيراً من المدارس لكل علم من العلوم المعروفة لذلك العهد .

ويطيب لنا أن نذكر هنا أن دمشق في زمن الملك العادل الأيوبي وعهد نور الدين زنكي كثرت المدارس فيها كثرة كبيرة واشتد الاقبال عليها وتخرج فيها مشاهير الرجال الأعلام في كل مضمار . وليس شيء أدل على ذلك من قيام ثلاث مدارس طبية في وقت واحد تقريباً بدمشق الى جانب المشافي التي كان أشهرها المارستان النوري نسبة الى نور الدين زنكي . وقد ذكر النعيمي في كتابه تلك المدارس الطبية الثلاث وهي المدرسة الدخوارية بالصاغة العتيقة قبلي الجامع الأموي أنشأها شيخ الأطباء اذ ذاك مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار سنة احدى وعشرين وستمئة . وهو من بيت عريق في الطب . أبوه كحال وكذلك أخوه حامد بن علي وكان هو في بادئ أمره كحالا . وعلى مقربة من المدرسة الدخوارية كانت تقوم غربي المارستان النوري المدرسة الدنيسرية أنشأها عماد الدين الدنيسري من أشهر أطباء عصره وقد درّس في الدخوارية بعد محمد ابن قاضي بعلبك الذي تلامسها الدخوار . وكان كثرة الطلاب والمريدين جعلته يفتتح مدرسته الطبية هذه قريبة من تلك . وفي خارج دمشق مدرسة طبية ثالثة تدعى المدرسة اللبودية النجمية أسسها نجم الدين يحيى بن محمد اللبودي سنة أربع وستين وستمئة . وكانت تلك المعاهد تسمى مدارس وهي تقابل الجامعات في العصر الحديث . وانما استطرنا هذا الاستطراد لنشير الى ازدحام الطلاب الذين كانت تعج بهم البلاد في كل عهد على الرغم من الاضطرابات السياسية التي كان أبرزها الحروب الصليبية وغارات المغول واستطرنا كذلك لننوه بالطبيب العربي العبقري علاء الدين بن أبي الحزم ابن النفيس الذي ولد بدمشق سنة ٦٠٧ هـ = ١٢١١ م ؟ وتوفي بالقاهرة عام ٦٨٧/١٢٨٨ . لقد درس في المدرسة الدخوارية تلك وتخرج فيها ثم علت شهرته فقربه الملوك الأيوبيون والمماليك الشراكسة ولا سيما الملك الظاهر بيبرس وغدا في مصر رئيساً للمارستان الناصري وللمارستان المنصوري الذي أسس قبل وفاته بنحو خمس سنوات والذي وهب له ابن النفيس داره الجميلة التي ابتناها بالقرب منه وخزائن كتبه وما ملكت يدها .

ويهمنا هنا أن نذكر بأن ابن النفيس كان علامة في الفقه وفي أصول الفقه وفي الحديث وفي اللغة العربية وبلاغتها . وقد أطراه أثير الدين أبو حيان النحوي الأندلسي الذي قدم القاهرة . وهذا التوسع في مختلف العلوم من صفات الحضارة العربية والعلم العربي كما سنرى قريباً . ولكن شهرة ابن النفيس الطبية هي التي غلبت عليه . وهو أول من كشف الدورة الدموية التي تدعى بالصغرى . فالى جانب كتبه الطبية العديدة لخص كتاب القانون لابن سينا ما عدا قسم التشريح منه ودعاه « موجز القانون » . ثم عمد الى قسم التشريح فشرحه في كتاب دعاه « شرح تشريح القانون » وفي هذا الكتاب يرفض ما جاء في كلام جالينوس وابن سينا من أن الدم يمر من البطين الأيمن في القلب الى البطين الأيسر ورفضه مبني على أن جدار القلب بينهما سميك مستحصف لا كما ادعى ابن سينا وجالينوس . ورأى أن الدم يذهب بالشريان الرئوي الى الرئة ليصفو وينقى ثم يعود بالوريد الرئوي واصلاً في النهاية الى البطين الأيسر وحاملاً معه روح الحياة . ونريد بهذه المناسبة أن نتطرق الى مصير هذا الكشف العلمي الرائع فقد جاء الطبيب الايطالي اندريا ألباغو (مات عام ١٥٢٠) بعد نحو قرنين من ابن النفيس وعكف يجمع المخطوطات العلمية العربية ويترجمها الى اللاتينية ويقال انه قضى في سورية قرابة ثلاثين سنة لهذا الغرض وترجم فيما ترجمه كتاب ابن النفيس . وأتى في ذلك الوقت طبيب ولاهوتي اسباني هو ميخائيل سرفيتوس (١٥١١ - ١٥٥٣) درس الطب في جامعات باريس ومونبلي ولوفان كما درس اللاتينية والعربية والعبرية وكانت هذه الجامعات متأثرة تأثراً عميقاً بالطب العربي . ولما تخرج مارس الطب في بعض المدن الفرنسية ونشر كتاباً بعنوان « اصلاح المسيحية » عام ١٥٥٣ في فيينا عارض فيه عقيدة الثالوث المسيحية والخطيئة الأولى وتعميد الأطفال فأثار الكنيسة واستدعته محكمة التفتيش في النمسا فأفلت منها ولجأ الى جنيف ولكن قبض عليه فيها وأمر به المصلح الديني كلشن فأعدم حرقاً . وهو في كتابه ذاك يشرح الدورة الدموية الصغرى وينتحل كشفها . وقد ذكر المستشرق مايرهوف في الموسوعة الاسلامية أن الجمل التي كتبها سرفيتوس عن الدورة الدموية تكاد تكون نقلاً حرفياً لما جاء في كتاب ابن النفيس . وعاش في الوقت نفسه أيضاً الطبيب الايطالي ماتيئو ريلندوكولبو فألف كتاباً في التشريح عرض فيه الدورة الدموية الصغرى عرضاً مقارباً جداً لكلام سرفيتوس كما يؤكد ذلك

مايرهوف . وأتى بعدهما بنحو خمسين سنة وليم هارفي الطبيب الانكليزي الذي تشيد كتب تاريخ الطب بكشفه للدورة الدموية . ولكن هذا الطبيب قد درس في مدينة بادوة الايطالية عام ١٥٩٨ وتخرج فيها عام ١٦٠٢ واطلع على بحوث كولبو وسرفيتوس كما تفيد الموسوعة الفرنسية « أونيفرساليس » ، واستطاع بعد ذلك أن يصف الدورة الدموية وصفاً كاملاً في كتابه « دراسة تشريحية لحركة القلب والدم في الحيوان » عام ١٦٢٨ أي بعد نحو أربعة قرون من ابن النفيس وشاعت شهرته بذلك ولم ينتبه هارفي فيما تُرجم عن ابن النفيس عند وصفه للدورة الدموية الى ما ورد في كلامه من « منافذ محسوسة » بين الشرايين والأوردة أي مما دعي بالأوعية الشعرية التي تأخر كشفها الى مجيء الطبيب الايطالي ملبيني عام ١٦٦١ أي بعد ما يزيد على ثلاثين سنة من كتاب هارفي وذلك حين تقدم العلم في الغرب وصنعت المجاهر .

هذا ولما كانت الأشياء تتميز بأضدادها كما قال أبو الطيب : « وبضدها تتميز الأشياء » رأينا أن نورد هذه النادرة الغريبة يقصها علينا أسامة بن منقذ في كتاب « الاعتبار » وهو البطل الأديب الذي عاصر بعض الحروب الصليبية ووصف ظواهر تأخرهم في شؤون كثيرة وفي المداواة والطب . كتب : « ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب الى عمي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه . فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد . فقلت له : ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمْلَةٌ وامرأة قد لحقها نُشَافٌ ، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبّت مزاجها . فجاءهم طبيب أفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً يداويهم . وقال للفارس : « أيُّما أحب اليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة . قال : احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً فحضّر الفارس والفأس وأنا حاضر فحطّ ساقه على قرْمَةٍ خشب وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها فحلقوه ، وعادت تأكل مآكلهم : الثوم والخردل . فزاد بها النُشَاف . فقال : الشيطان قد دخل في رأسها . فأخذ الموسى وشقّ رأسها صليباً وسلخ وسطه

حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح فماتت في وقتها . فقلت لهم : بقي لكم اليّ حاجة؟
قالوا : لا . فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه (ص ١٣٢ - ١٣٣) .

وكان نفوذ الدولة الأيوبية قد امتد الى اليمن عام ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م حين أرسل صلاح الدين أخاه اليه فاهتم ملوكها بنشر الثقافة والعلم فيه وبنى الملك مُعِزُّ الدين اسماعيل بن طُغْتُكَيْن بن أيوب مدرستين احدهما في تِعرَ سَماها المدرسة السيفية نسبة الى أبيه سيف الاسلام طفتكين والثانية في زبيد نسبها الى نفسه فسمّاها المعزّية أو مدرسة المعزّ .

وانقطع حكم الأيوبيين في اليمن عام ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م حين خلفهم بنو رسول . وكان عهد هؤلاء أخصب عهد لليمن ثقافة وأكثرها اهتماماً بإنشاء المدارس وعمارة المكتبات وأشدها عناية بالعلماء وتكريماً لهم . وغدا اليمن في عهدهم موئل العلماء يجدون فيه من التقدير والتكريم أكثر مما يأملون . ومن أشهر من قدم اليمن في ذلك العهد الامام اللغوي مجد الدين الفيروزابادي فاحتفى به الملك الأشرف الثاني ممهّد الدين اسماعيل بن العباس فتصدر الامام للتدريس في مدينة زبيد . ولم يمتنع الملك نفسه من أن يأخذ عنه . وقد ولاه قضاء الأقضية فكان يقضي ويدرس ويؤلف . وقد ألّف كتابه القاموس المحيط وأهداه الى الملك .

وخلفت الدولة الرسولية الدولة الطاهرية عام ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م فصار ملوكها على ذلك النهج وتابعوا بناء المدارس ونشر العلم .

وهكذا كانت سِيرَ الحكام في مختلف بقاع العالم العربي الاسلامي مثلاً في حبهم للعلم وتكريمهم للعلماء وحفزهم على جمع الكتب وتأليفها ، ولا سيما في مصر والمغرب والأندلس . ولو كان اهتمام المؤرخين العرب قدماء ومحدثين مُنْصَبّاً على تاريخ العلم وبناء المدارس وتأليف الكتب وجمعها بأنواعها أكثر من اهتمامهم بالملوك والرؤساء والحروب لظهر فضل الحضارة العربية الاسلامية أوضح مما ظهر ولطفى نورها على أنوار الحضارات الأخرى ولاستبان غناؤها في تقدم العلم والعرفان في كل مضمار ولتَبَدَّتْ شدة تكريمها للمشتغلين بهما ورفعها لهم فوق كل مكانة ومكان ، على الرغم مما أصابها من فتن وتحيّفها من محن وتعرضت له من كوارث وغارات .

ان ما ذكرناه آنفاً يتناول المدارس المستقلة مؤخراً عن المساجد وان كان بعضها لا يخلو من مصلّى تقام فيه الصلوات . بيد أن المساجد والجوامع منذ أول الدعوة كما ذكرنا حتى الوقت الحاضر هي مراكز تعليم وتثقيف وتنوير . وهي لا تكاد تحصى في كل قطر . يأتي في طليعتها الجامع الأموي بدمشق والجامع الأزهر بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس وجامع قرطبة المشهور حيث حلقات العلماء والطلاب تنعقد دائماً من قبل شروق الشمس الى غسق الليل . ونحن نتصور عدد الجوامع الأخرى الكثيرة الصغيرة التي لم تكن تفتأ تبث العلم بأنواعه المختلفة . ويطيب لي هنا أن أذكر الى جانب تعلّمي في المدارس الرسمية الحكومية بمدينة حمص كنت وأنا فتى في نحو الخامسة عشرة من العمر أستيقظ قبل الشمس فأصلي الصبح وأسرع الى جامع بازرباشي وهو جامع صغير على بعد كيلو متر من دارنا لأقرأ مع غيري من الطلاب كتب النحو والبلاغة والمنطق القديمة وتفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وأنهل بملء ملكاتي الناشئة المتحفزة من مناهلها العذبة الثرة ما كان لي فيما بعد قوة علمية أي قوة مع دراساتي للعلوم الأجنبية .

ومن الطبيعي أن يرافق انشاء المدارس الاكباب على تأليف الكتب وانتشار فن الوراقة وانشاء المكتبات مستقلة أو مرتبطة بالمدارس . ولقد كان بعض المكتبات ينشئها الأدباء والعلماء أنفسهم ويفتحونها لطلاب العلم ويرونهم بالمال والورق مثلما كان بعضهم ينشئون المدارس . نقرأ في « ارشاد الأديب » لياقوت أن جعفر بن محمد الموصلي (٢٤٠-٣٢٠) « كانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب للعلم لا يُمنع أحد من دخولها اذا جاءه غريب يطلب الأدب وان كان معسراً أعطاه ورقاً وورقاً تفتح في كل يوم ويجلس فيها اذا عاد من ركوبه ويجتمع اليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته (ج ٢ ص ١٩٣) . ويذكر ياقوت أيضاً في كتابه نقلاً عن نشوار المحاضرة أنه « كان بكركر من نواحي القفص (قريباً من بغداد) ضيعة نفيسة لعلّي بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها دار الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبدولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن

يحيى (ج ١٥ ص ١٥٧) • هذا شأن الشعب • أما الأمراء والخلفاء والوزراء فقد كانوا يتسابقون الى ذلك ويزيد الخلف على ما قام به السلف • ولقد مر آنفاً حديث بيت الحكمة الذي أنشأه هارون واشتهر في زمن المأمون •

ولقد أحب الناس في الحضارة العربية الاسلامية الكتاب كل الحب ووصفوه بأجمل الأوصاف ونعتوه بأسمى النعوت وأكثرها غرابة وغنى • وأكاد أقول ان الجاحظ قد تغزل متفنناً بالكتاب في مستهل كتابه الحيوان حين أنشأ بنشره الممتع البليغ وصفه ذاك • ولا نستطيع أن نمر على ذكره دون أن تزدهم في البال بعض فقراته كاللآلئ المفصلة : « نعم الذخروالعقدة هو ، ونعم الجليس والعدة ، ونعم النشرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربية ، ونعم القرين والدخيل ، ونعم الوزير والنزيل • والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشي ظرفاً وائاء شحن مزاحاً وجدا • ان شئت كان أبين من سحبان وائل ، وان شئت كان أعيان باقل ، وان شئت ضحكت من نوادره وان شئت عجبت من غرائب فرائده ، وان شئت ألهتك طرائفه ، وان شئت أشجبتك مواعظه • ومن لك بواعظمله ، وبزاجر مفر ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس ، وببارد حار » ثم يقول : « ومن لك بطبيب أعرابي ومن لك برومي هندي ، وبفارسي يوناني ، وبقديم مولد ، وبميت ممتع ! ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر والناقص والوافر ، والخفي والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟ وبعد فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن وروضة تقل في حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ؟ ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى ؟ آمن من الأرض ، وأكتم للسمر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من رباب الوديعة • • • » الى آخر هذا الوصف المتفنن في محاسن الكتاب ومزاياه • فلا غرو بعد هذا أن يقول أبو الطيب مشيراً الى العلم والى النضال معاً :

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الأنام كتاب

ولا عجب أن يفتخر جابر الله أبو القاسم الزمخشري فيقول ساهراً عاكفاً على القراءة والكتابة :

سهرى لتنقيح العلوم الذّلي من وصل غانية وطيب عناق

وتمايلي طرباً لحل عويصة أشهى وأحلى من مدامة ساق
وصرير أقلامي على أوراقها أحلى من الدوكاه والعشاق
والذ من نقر الفتاة لدفها نقري لألقي الرمل عن أوراقى
أأبيت سهران الدجى وتبته نوماً وتبغى بعد ذاك لحاقى

بل قد بلغ حب الكتب من قلوب الناشئة والعلماء مبلغاً عميقاً حتى ان أبا
عبد الله محمد بن سلامة المقرئ خشي أن يموت دون أن يذهب ظمؤه وينقضي أربه
من ذلك الحب .

اني لما أنا فيه من منافستي فيما شغفت به من هذه الكتب
لقد علمت بأن الموت يدركني من قبل أن ينقضي من حبها أربي
كما يذكر ياقوت في مقدمة كتابه .

ولعل اهتمام الجاحظ بالكتابة والأدب والعلم والفلسفة جعله يستغرق
وينسى نفسه وكنيته فقد حدث مرة قال: نسيت كنييتي ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي
فقلت لهم : بم أكنى ؟ فقالوا : بأبي عثمان .

وربما كان الجاحظ هو نفسه يضع النوادر ترويحاً ، فقد ذكر أنه دخل مدينة
واسط فبكر يوم الجمعة الى المسجد فقعده فرأى على وجه رجل لحية لم ير أكبر منها
واذا هو يقول لآخر : الزم السنة حتى تدخل الجنة . فقال له الآخر : « وما
السنة ؟ قال : حب أبي بكر بن عفان وعثمان الفاروق وعمر الصديق وعلي بن
أبي سفيان ومعاوية بن أبي شيبان . قال: ومن معاوية ابن أبي شيبان ؟ قال : رجل
صالح من حملة العرش وكاتب النبي ﷺ وزوج ابنته عائشة (أخبار الحمقى) .

يريد أمير الفكاهة من نادرته هذه أن ينبهنا على ألا نفتر بالمظاهر ولا بالألقاب
اذ تكون أحياناً مضللة .

وكان العلماء العرب يخشون التحريف وعدم الدقة في رواياتهم فاستعملوا
الفكاهة للتنديد بهما . سأل أبو عبيدة كيسان كاتبه عن اسم رجل من شعراء
العرب فقال اسمه خداس أو خراش أو خماش أو شيء آخر وأظنه قرشياً . فقال

له أبو عبيدة : من أين علمت أن نسبه في قریش ؟ فقال : رأيت اكتناف الشينات عليه من كل جانب .

وكيسان هذا يترجم له السيوطي في كتابه « بغية الوعاة » فيورد قول أبي عبيدة فيه : « كان كيسان يخرج معنا الى الأعراب فينشدوننا . فيكتب في ألواح غير ما ينشدون ، وينقل منها الى الدفاتر غير ما فيها . ثم يحفظ من الدفاتر غير ما فيها ثم يحدث غير ما حفظ . »

سأله

ولقد ضاق شاعر قديم بروايته فقال:

أقول له بكرةً فيسمع خالداً ويكتبه زيدا ويقرؤه عمراً

وقد نجد أمثال كيسان هذا في العصر الحاضر موزعين بين المحققين والمصححين والناشرين والموظفين وان كانوا قلة نادرين . وكم تضيق صدورنا بالأخطاء المطبعية في الكتب التي تنشرها دور الطباعة اليوم . على أن طالب العلم ومعلمه ينبغي أن يكونا مكفيي المؤونة متفرغين لما هما بصدد من البحث والا كان مثلهما مثل أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي . قال : « حضرت مجلس يزيد بن هارون فأملئ ثلاثين حديثاً فحفظتها فجئت الى منزلي أعلّق . فعلّقت منها ثلاثة . فجاءتني الجارية وقالت : مولاي ! فني الدقيق (أي الطحين) فنسيت سبعة وعشرين وبقيت ثلاثة . »

وهناك أمثلة تظهر فضل المكتبات في اعداد العلماء . يروي الشيخ الرئيس ابن سينا أنه لما مرض نوح بن منصور الساماني في بخارى شارك وهو شاب ناشئ في مداواته حتى برىء فسأله يوماً الاذن في دخول دار كتبه ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب فأذن له . فدخل داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض . في بيت منها كتب العربية والشعر . وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد . يقول ابن سينا : « فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت اليه منها ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيت من قبل ولا رأيت من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه . فلما بلغت ثمانين عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها . »

وكان طلاب العلم يقصدون مناهله مهما تكن بعيدة . ونحن نذكر كيف شد الرحال من معرة النعمان بالشام الى بغداد طالب علم ضرير آية في النبوغ هو أبو العلاء المعري ليزور فيما يزوره دار العلم السابورية التي أنشأها أبو نصر سابور بن أردشير الشيرازي وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة . وقد ذكرها حكيم المعرة حين سمع في أصيل يوم رباعي "حمامة تهدل على شجرة مزهرة من أشجار المكتبة:

وغتت لنا في دار سابور قينة" من الورق مطراب الأصائل ميهال

واشتهرت هذه المكتبة وبلغ خبرها الفاطميين بمصر فأنشؤوا مثلها في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤٠٠ هـ أي بعد دار العلم السابورية بتسع عشرة سنة.

وذكر ياقوت في معجم البلدان بصدد كلامه على مدينة مرو كثرة المكتبات العامة فيها فهو يقول : «ولولا ما عرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات لما في أهلها من الرفدولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بها فاني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقوف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة . منها خزانة في الجامع احدهما يقال لها العززية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق بن أبي بكر وكان فقاعياً للسلطان سنجر . وكان أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو ثم صار شرايباً له . وكان ذا مكانة منه . وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها ، والأخرى يقال لها الكمالية لا أدري الى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته . ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤ ، وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته ، وخزانة السمعانيين ، وأخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها ، والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك . وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها . وأنساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد ، وأكثر فوائدها هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن . »

ولا ننس الأندلس ودور العلم فيها وازدهام الكتب على رفوف مكتباتها . وقد أثبت ابن خلدون أن أسماء دواوين الشعر وحدها في مكتبة قرطبة عاصمة

خلفاء بني أمية في الأندلس كانت مدونة في ثمانمائة وثمانين صفحة • ويذكر المؤرخون أن مكتبة قرطبة كانت تحتوي على ستمائة ألف مجلد وأن فهرست أسماء تلك الكتب كانت تقع في أربعة وأربعين مجلداً •

هذا غيض من فيض وبرض "من عيد" • ولم نذكر الرباطات والخوانق والزوايا التي كانت تملأ البلاد العربية والاسلامية والتي كان المرء أنى وجد يستطيع فيها أن يتفرغ للعلم والتأليف والنسخ والوراقة مكفياً مؤونته المعاشية • ويُخَيَّلُ لنا ان البلاد العربية والاسلامية بأرجائها الواسعة وسواحلها المتطاولة وسفوح جبالها النضرة وغياضها الخضراء من شماليها الى جنوبيها ومن غربيها الى شرقيها كانت تتلأأ بدور العلم والمعاهد والمكتبات تُلَوِّ السماء الصافية بالنجوم البديعة وتتألق بعلمائها الأعلام تألقها بالكواكب المنيرة تضيء ذلك كله شمس الاسلام •

ولهذا كله أنتجت الحضارة العربية الاسلامية ما لا يحصى من روائع البيان وبدائع العلم وثمرات العقول والقلوب وغرائب الابتكار وفرائد الاختراع في كل علم وفي كل فن وفي كل مضمار •

ولا غرو لما شرع الغربيون يطلعون على طائفة من تلك الفرائد وعلى قسط من تلك الفرائد وعلى نصيب من تلك البدائع والروائع وعلى جنى تلك الثمرات ذهلبوا أيّما ذهول وخامرهم العجز عن أن يلحقوا بركب تلك الحضارة فطفقوا يتعلمون ويجمعون الكتب والمخطوطات ويترجمون ويقلدون وينتحلون ما شاء لهم الانتحال والتقليد والترجمة والتعلم • ثم غدوا يطمسون آثار تلك الحضارة في نفوسهم وفي كتبهم وفي تقدمهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا • وحسبنا أن نشير هنا الى فقرات كتبها الشاعر الايطالي بتراركوس (١٣٠٤ - ١٣٧٤) يتبرم فيها بالحالة النفسية رانت على معاصريه • فهو يهيب ببني قومه ويستحثهم على الجرأة الفكرية والأدبية وينفخ في همهم فهو يقول محنقاً ما ترجمته :

« ماذا ؟ لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستنس واستطاع فرجيلوس أن يكون شاعراً بعد هوميروس ، وبعد العرب لا يسمح لأحد بالكتاب ! لقد جارينا اليونان غالباً وتجاوزناهم أحياناً ، وبذلك جارينا

وتجاوزنا مختلف الأمم • وتقولون اننا لا نستطيع الوصول الى شأو العرب !
يا للجنون ويا للخبال ! بل يا لعبقرية ايطاليا الغافية أو المنطفئة* »

ولقد كرت السنون بل كرت القرون، وتغيرت الأحوال وانتقل مركز الحضارة العربية الاسلامية من بلد اسلامي الى آخر ثم تخلفت البلاد العربية والاسلامية جميعاً عن ركب الحضارة الانسانية بعد أن حملت لواءها عصوراً عديدة وبعد أن بلّغتها أعلى ذراها من تحرير الانسان والمساواة بين البشر وتمجيد مكارم الأخلاق وتوحيد الايمان والتسابق في تحقيق القيم الرفيعة وتوكيد الأخوة الاسلامية والانسانية • « أيها الناس كلکم من آدم وادم من تراب • » هذا وحده في مستوى الروح والأخلاق بصرف النظر عن الجوانب العلمية والفنية والأدبية •

ثم تلامحت شعل الحضارة المقتبسة في أوربة وأمريكة والاتحاد السوفياتي ولكنها مهما يشتد بريقها ويأخذ بالأبصار بما أنجزته من تقدم مادي وتكنولوجي تبقى بحاجة الى نفحات علوية انسانية على الرغم من كثرة الدعاوي العريضة •

وهكذا بسبب التبعية الحضارية ولاسيما المادية أصبحت البلاد العربية والاسلامية تنشئ جامعاتها على غرار الجامعات الغربية في الغالب •

★ ★ ★

ان الجامعة في الوقت الحاضر منظمة علمية وتربوية ذات بنى مشتبكة وذات وجوه من النشاط متعددة : وهي تقصد الى أهداف تريد تحقيقها كلاً أو بعضاً بحسب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية • وقد يتعسر تحقيق الأهداف الكلية فتكتفي بأهداف اجرائية تنفيذية عاجلة • ومع ذلك تبقى الأهداف الكلية منصوبة للتحقيق • وهي أهداف وغايات علمية ووطنية وقومية وانسانية •

ثم ان الجامعة من أهم مراكز المعرفة تتعهد تالدها وتنمي طارفها وتنقل ما يلزم الى الوطن من المعرفة العالمية وتعمل على تطوير هذه المعرفة بالتدريس والبحث والنشر والتشجيع في مجالات أكاديمية عالية • وهذه المعرفة انما يقصد

* ذكر هذا النص غاستول بوتول في التوطئة التي كتبها وقدم بها ترجمة المستشرق دي سلان لمقدمة ابن خلدون الى اللغة الفرنسية ، طبعة باريس عام ١٩٣٤ •

منها جانبها النظري والتطبيقي الموائمان للطبيعة الوطن الذي تقوم الجامعة على أرضه سواء كانت الطبيعة مادية أو نباتية أو حيوانية والموائمان لنشاط السكان الذين يؤلفون البنية الحية المدركة والذين يتم بهم كل تقدم ورفعة والذين يقدم كل منهم لمجتمعه أفضل ما يحسن من عمل وفي المقابل ييسر هذا المجتمع لأبنائه مساعيهم ويكفل تضامنهم ويضمن حريتهم وكرامتهم ورفههم .

ولا شك أن الجامعة من خلال برامجها الأكاديمية وسياساتها التنظيمية والغائية تبقى متفتحة للابتكارات الجديدة ، مستجيبة لمطالب هيئاتها العلمية والطلابية ، مترصدة للأساليب الناجعة في توارث المعرفة الصحيحة ونقلها من جيل الى جيل ومن كل مكان الى البلد الأصلي . وهي تدرك العلاقات العامة بينها وبين ركب الحضارة والعلاقات الخاصة بينها وبين المجتمع الذي تقوم في أحضانه والذي تعمل على خدمته وتطوير مرافقه وتحقيق مطامحه واعداد رجالاته . ان كل كائن حي له وظائف تتماسك حياته بها ويتم تقدمه ونماؤه بأدائها على وجوها السليمة . وكل قصور في أداء وظيفة من تلك الوظائف مسؤول عنها العضو أو الأعضاء المنوطة بها تلك الوظيفة .

والجامعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة القومية وبالمشاريع الوطنية كما أن لها شأنًا قيادياً في القيام بالأبحاث العلمية وفي امداد المجتمع بسيل مستمر من الأفكار الجديدة والمخترعات الحديثة ، وفي امداد الدولة بالملكات الوطنية التي تنفذ خطط التنمية وتحقق التقدم الاجتماعي وتيسر الوصول الى مستو عال من الحداثة .

وقد أصبحت الجامعات خاصة والأقطار عامة بعضها ذات احتكاك ببعض بسبب سرعة المواصلات وتقدم وسائل الاعلام وأجهزة التصوير والطباعة الحديثة واحتمال تبادل الكتب والمجلات والتسجيلات السمعية والبصرية وما الى ذلك من تقنية تتطور في كل يوم .

فلا غرو أن تنفذ الى الجامعات وهي مواطن الفكر بشتى أنواعه وأساليبه وميادينه مختلف التيارات الفكرية وهذا بفضل حرية الفكر وحرية البحث المفروض توافرها . وربما ابتعثت تلك التيارات والاتجاهات الحديثة بعض البلبلة لدى الناشئة ونصيباً من الحيرة . ولكننا لا نخشى الحيرة ولا البلبلة اذا كان الأساتذة والطلاب على حظ كاف من الثقافة التراثية والثقة بالنفس ، بل ربما

أفادوا من عناصرها العلمية والانسانية وزادوا غنى ثقافتهم بما تحمله من مضامين فكرية وأحاطوا بها بدلا من أن تحيط بهم . أوليست الحكمة في تراثنا ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كائناً ما كان؟!

وقد يتساءل الناشئة عن مواقفهم تلقاء تراثهم فينظرون اليه من جانب الأفق العالمي ويقدرّون كم أسهم هذا التراث العظيم في تقدم العلم ورفعة الفكر وخدمة الانسانية . ثم ينظرون اليه من جانب الأفق العربي الاسلامي والجغرافي والتاريخي فيدركون أصالة هذا التراث وخصوصيته فوق ادراكهم عموميته .

وكذلك ينظرون اليه من الأفق المثل على المستقبل فيستلهمونه في ضوء همومهم المطيفة وحل مشكلاتهم المعترضة . فيكون حافزاً لهم وياعثاً على الحركة والعمل وهكذا اذا رجعنا الى التراث العربي الاسلامي طالعتنا مزايا هذا التراث واستطعننا أن نستند الى خصائصه المميزة وسماته العالية .

★ ★ ★

ونحن نحب أن نؤكد هذه السمات والخصائص والمزايا لعلها تنغرس في صدور الناشئة وترسخ في نفوسهم وتغدو مستنداً ومصدراً لهمهم .

نوهنا في مستهل هذا الحديث بقيمة العلم في هذا التراث . فهو مجد وشرف وقوة ورفعة ليس فوقها رفعة . والمجتمع مسؤول عن كل علم نافع محمود حتى اذا أعوز علم من العلوم كان فرض كفاية على الناس بحيث يجب أن ينفر فريق منهم لتعلمه واتقانه وتزويد المجتمع به ، والأأثموا جميعاً .

والعلم حياة للمجتمع ولل فرد . انه حياة حقيقية في الحياة وبعد الحياة وقالوا في ذلك شعراً كثيراً نذكر منه هذين البيتين :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وان امراً لم يحيى بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

قال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك .
(إحياء ج ١ ص ٧)

وقد شبه فريد الدين العطار النفس بالفراشة لا تصل الى المعرفة الا باحتراقها في الشعلة شعلة العلم وقد أخذ هذا المعنى الشاعر الألماني غوتي فله قطعة شعرية في كتابه « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » بعنوان الحنين السعيد تقوم على هذا التشبيه كأن النفس تحن الى الاحتراق حين ترى مشهد النور فان لم تحترق كانت طيفاً عابراً في هذه الدنيا لا أثر لها ولا خبر . وثمة شعراء وكتاب قدماء وحديثون اقتبسوا هذا التشبيه .

وكان علماء الاسلام في علومهم التي يتخصصون بها لا يحصرون أنفسهم في حدودها الضيقة . بل كانوا دائماً يتشوفون الى ما وراء هذه الحدود ويلمون ما استطاعوا يعلمون أخرى متعددة . ولهذا كانت لهم صفات موسوعية الى جانب اختصاصهم . وقل أن نجد عالماً من علماء الاسلام ضيق الأفق اقتصر على علم واحد . قيل للامام الشافعي : متى يكون الرجل عالماً ؟ قال : اذا تحقق في علم فعلمه وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالماً (احياء علوم الدين ج ١ ص ٢٦) ذلك أن أولئك العلماء كانوا يدركون اشتباك جوانب الكون وتراكب عناصره وارتباط بعضها ببعض ضمن وحدته . فاذا درسوا علماً من العلوم يتناول موضوعاً ما انتبهوا الى احتمال علاقاته بموضوعات العلوم الأخرى وحاولوا استشفافها حباً في كشف هذه العلاقات وفي تطوير علومهم وفي ابتكار شيء جديد . ذلك أن من صفات العلم حركته وقبوله للتطور وعدم اكتماله وتاريخيته بمعنى أن كل علم هو زبدة العصر الذي ظهر فيه . فكان العالم المسلم متشوقاً نحو الابتكار والاستكمال والاتيان بالجديد يهتدي بنور عقله وذكاء قريحته . قال ابن مسعود : ليس العلم بكثرة الرواية . انما العلم نور يقذف في القلب (احياء ج ١ ص ٤٩) . ومعنى ذلك في رأيي تحفز العالم لتفهم ما خفي عنه بتوقد قريحته وابتكار الجديد لا الوقوف عند ما حصل .

ثم ان العلم في الاسلام يجب أن يقترب بالعمل . ومن عبقرية اللغة العربية أنها كونت لفظي العلم والعمل من حروف واحدة لبيان اقترانهما وأن الواحد لا يتم الا بالآخر . وهذا ما يدعى في العربية بالاشتقاق الكبير . ثم ان كلا منهما يؤثر في الآخر . وهذا ما يدعى في الفلسفة الحديثة بجدلية العلم والعمل اشارة الى التأثير المتبادل بينهما تأثيراً متلازماً . وعبر علماء الاسلام عن هذه الجدلية

بعبارات بديعة كقولهم : « العلم يهتف بالعمل فان أجابه أقام والا ارتحل » ،
وقولهم : « ثمرة العلوم العمل بالمعلوم » ، وقولهم : « شكر العلم العمل به وشكر
العمل زيادة العلم » وفي هذا القول إشارة الى أن العلم والعمل كلاهما نعمة ! وقد
قال علي كرم الله وجهه : قيمة كل امرئ ما يحسن • فأخذه الخليل الفراهيدي
وهو العالم المبتكر فنظمه شعراً :

لا يكون العليُّ مثل الدنيَّ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيِّ

قيمة المرموقد ما يحسن المرم قضاء من الامام عليّ

فلاحسان هنا بمعنى العمل المستند الى العلم والالتيان بالجديد المبتكر •

ثم ان العلم أياً كان موضوعه والعمل أياً كان ميدانه ينبغي لهما أن يؤديا الى
مصلحة المجتمع وخدمة الانسانية وتعليم الناس الخير • فالخير هو الهدف المقصود
والغاية المرجوة من العمل والعلم معاً • لقد ورد في الحديث الشريف : « ان الله
عز وجلّ وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى
الحوت ليصلون على معلم الناس الخير » • ومن المعلوم أن الصلاة من الله رحمة ، ومن
الملائكة استغفار ، ومن الغير دعاء • ولارتبة فوق رتبة من تشغل الملائكة وجميع
المخلوقات بالاستغفار والدعاء له • ولهذا كان ثوابه لا ينقطع بموته • وان دعاء
الانسان لأخيه الانسان من الخير • فكيف بدعاء الملائكة الأعلى ودعاء الورى وبالهام
الحيوانات الاستغفار والدعاء له • وذلك لفضل العلماء وعملهم وارشادهم وهو
سبب لانتظام أحوال العالم • وذكر النملة والحوت بعد ذكر الثقلين تتميم لجميع
أنواع الحيوان • ثم ان نفع العالم يتجاوز الناس الى جميع الخلائق حتى النملة
والحوت • وفي التعبير الحديث نقول : على العالم أن ينتبه للتوازن الحيوي فوق
الأرض فلا يقع فيها تلوث ولا إجحاف ولا تخريب لأن العلم والعمل مسوسان
بالخير العام ومسيّران نحوه •

ثم ان العالم العامل الذي يعلم الناس الخير يغدو قدوة لغيره من الناس • هنا
نأتي الى فكرة الأستاذ القدوة التي هي من مزايا الحضارة الاسلامية ، ذلك أن
الناس يعيشون على الاقتداء بأفاضلهم وأعاليمهم كما نوه بذلك ابن خلدون قديماً
وكما أشاد بذلك أيضاً المفكر الفرنسي « تارد » حديثاً • فبالاقتداء الذي يؤلف

غالبية الشبكة الاجتماعية يسري الخير في نفوس الناس وتسري المحبة والتضامن
كما يسري النسخ الحي في نسج النبات في ابان الربيع .

ان تضافر العلم والعمل والخير يجعلنا نفهم كلمة مفكر مسلم قديم (هو
أبو يزيد البسطامي) تبدو غريبة مستهجنة في ظاهرها وهي : « أشد الناس
حجاً عن الله ثلاثة : عالم بعلمه وعابد بعبادته وزاهد بزهد » ذلك بأن العالم
في رأينا اذا وقف عندما يعلم كان علمه محدوداً وغاب عنه ما وراء حدود علمه .
والعابد اذا اقتصر على عبادته دون أن يخدم مجتمعه لم تنفعه العبادة الشخصية
وحدها لأن غالبية العبادات ان لم نقل كلها ذات صفات اجتماعية تتعلق بتحسين
المجتمع وتجويد العلاقات الانسانية والسعي في خير الجميع . والزاهد
بانصرافه عن عمارة الدنيا التي هي سبيل الخلود تقل موازينه في ميدان العمل
المثمر . وكل تجافٍ عن النظر في الكون والبحث في أسرارهِ وعن التعاون مع الناس
انما هو تباعد عن السنن الطبيعي وتنكب عن جوهر الانسان . ولقد كان علماء
الاسلام حراساً على الافادة من الزمن والخوف من فواته . كل ساعة عندهم
وسيلة من وسائل الغنى العلمي والمادي . قالوا: الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك .
وقال الجنيد: « الوقت اذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعزَّ من الوقت » . وقد كتب
أبو الفرج بن الجوزي في كتابه صيد الخاطر : « ينبغي للانسان أن يعرف شرف
زمانه وقدر وقته فلا يضيع لحظة في غير قربة ، ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من
القول والعمل . ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن
من العمل » .

وقد نجد في التراث مواقف وأقوالاً غريبة وعجيبة ورائعة في تقدير الوقت
خشية فواته وفي محبة العلم والحرص عليه . روي عن عامر بن قيس أحد
التابعين أن رجلاً قال له : كلمني (وعرف خواء حوارهِ) فقال له عامر : أمسك
الشمس . أي أن الزمن لا يقف فتجب الافادة منه وعدم اضاعته سدى .

ومن أغرب هذه المواقف ما ذكر ياقوت في ارشاد الأديب عن أبي الريحان
البيروني فقد كان « مع الفسحة في التعمير وجمالة الحال في عامة الأمور مكباً على
تحصيل العلوم ، منصباً الى تصنيف الكتب، يفتح أبوابها ، ويحيط بشواكلها
وأقربها ، ولا يكاد يفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر الا في يومي

النيروز والمهرجان من السنة لاعداد ما تمس اليه الحاجة في المعاش من بلغة الطعام وعلقة الرياش ، ثم هجّيراه في سائر الأيام من السنة علم يسفر عن وجهه قناع الاشكال ، ويحسر عن ذراعيه كمام الاغلاق» * . ثم يذكر ياقوت أن الفقيه علي بن عيسى الولوالجي قال : « دخلت على أبي الريحان وهو يوجد بنفسه قد حشرج نفسه ، وضاق به صدره . فقال لي في تلك الحال : كيف قلت يوماً حساب الجدات الفاسدة ؟ فقلت له اشفاقاً عليه : أفي هذه الحالة ؟ قال لي : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها ؟ فأعدت ذلك عليه وحفظ وعلمني ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ » . وما ندرى أوقعت هذه القصة حقاً أم كانت خيالية لا يراز حب أبي الريحان للعلم حتى في سياق الموت . وأبو الريحان هو الذي قال فيه المستشرق الألماني زخاو : « انه أكبر عقلية عرفها التاريخ » وهو الذي اقترح مؤرخ العلوم الأمريكي سارتون تسمية النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي باسمه .

قال رسول الله ﷺ : « ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق » . وفي الحق ليس ثمة شيء صالح الادعا اليه ولا شيء " ضار الا أبعد عنه حفظاً لمصلحة الفرد والمجتمع والدولة والانسانية . ولكن الحياة في تطور دائم وضرورة مستمرة . ولا بد من أن تنشأ فيها مشكلات جديدة وتنشأ مواقف حرجة تتعلق بمسائل اجتماعية وفكرية واقتصادية وعلمية وسياسية ومالية ذلك . وليست هذه المواقف والمشكلات بالقليلة كنظرية التطور مثلاً في البيولوجية ومشكلة تنظيم الأسرة وضبط النسل في علم السكان . هاتان مسألتان بسيطتان في جانب مسائل أخرى دقيقة متعددة ، يمكن أن تعالج كلها في الجامعات ومعاهد البحث العالية . ونعتقد أنه ليس من الصعب الوصول الى الحلول السليمة تمليها مصلحة المجتمع وأسلوب الفكر الاسلامي المتفتح المحيط بدخائل الأمور والمتلمح لمصائرهما والمدرك بأن النظريات العلمية ليست مطلقة ولا نهائية . بل هي ثمرة العصر الذي حصلت فيه والمرحلة التي وصلت اليها . نحن لا نخشى من أمثال هذه المباحث اذا اطلعنا اطلاعاً واسعاً وعميقاً على جوهرها وفكرنا ملياً في مصلحة الأمة دون أن نعلم بسرعة الى

* هكذا في الأصل والمراد هنا اكمام جمع كم بضم الكاف وهو مدخل اليد ومخرجها من الثوب . ولعل الالف سقطت عند الطبع .

اعطاء رأي فطير أو فتوى جاءت في بعض الكتب الدينية المتأخرة بمناسبة حادثة طارئة . نعود فنضرب مثلاً قضية ضبط النسل فلا بد في اعطاء رأي اسلامي في هذا الصدد من الامام بمواقف الدول الحديثة غربية وشرقية وبمواقف الأديان الأخرى وتبين ما وراء هذه المواقف واستلهاً ما جاء في التراث الواسع جميعه قبل التسرع في الحكم . ونرى أنه من المفيد في جامعة اسلامية انشاء هيئة صغيرة استشارية تجتهد في هذا المضمار ان لم يكن ثمة نصّ قاطع تتألف من الأكفيا العلماء المطلعين على قواعد التشريع الاسلامي والمتفتحين على روح الدين واتجاهه الاجتماعي مع الاطلاع على مكاسب العلوم الحديثة وتكون هيئتهم بمنزلة السفينة الماخرة في بحر العلوم بل في خضم الحياة المتلاطم الأمواج والمتضارب النزعات . وقليل ما هم . ومن المفيد أيضاً لهذه الهيئة الاتصال بأمثالها في الجامعات الاسلامية وبدور الفتوى ان وجدت . ثم ان هدى البصيرة وتقوى القلوب واستشراف المستقبل تيسر كل صعب وتذل كل عقبة وتوجه كل بحث .

نجد في التراث أيضاً أن « العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه : قلب مفكر ، ولسان معبر ، وبيان مصور . » (أدب الدنيا والدين للماوردي) . وهذا يدل على أنه لا بد في التعلم والتعليم من قلوب أو عقول متدبرة مفكرة تستوعب المعاني والمعلومات، ولا بد فيهما أيضاً من ألفاظ ومصطلحات تقابل تلك المعاني ومن بيان يستوفي تلك المعلومات دون زيادة ولا نقصان . أما النقصان فيأتي من العي والحصر وضعف ملكة البيان . وأما الزيادة فهي ضرب من الهذر والاكثار . وتبقى زيادة اللفظ على المعنى أقل خطراً من تقصير اللفظ عن المعنى . وانما ينشأ هذا من سوء فهم المتكلم أو الشارح . ولهذا لا بد للأستاذ من اتقان لغة قومه ولا بد له من التأليف فيها والتعليم بها أيضاً . ولا نستطيع أن نتصور جامعة عربية اسلامية تعلم العلوم على اختلاف أنواعها بغير اللغة العربية مهما اعترضت العقبات ونشبت دون ذلك الصعوبات وتعددت في سبيله العثرات .

ان الجامعات خزائن المعرفة ومناهل العلم وينابيع التفكير ومصادر التجديد اذا كان التعليم العالي فيها باللغة القومية . ذلك أنه يتخرج فيها رجال الفكر والأطباء والمهندسون والمحامون والاداريون وأهل القانون وأصحاب الاختصاص المتنوع في العلم والمعرفة . واذا جروا على ممارسة التفكير والاعراب عن بنات أفكارهم

وثمرات قرائحهم بلغتهم القومية العربية أدّى ذلك الى تطور العلم العربي . ثم ان كلاً من المفكرين والعلماء ينتسب الى أسرة وله أصدقاء وزملاء ويختلف الى أندية وجماعات ويشترك في مناقشات ويزاول التفكير والبحث أياً كان مداهما . فاذا جرى على التعبير والاعراب عن أفكاره في بحوثه ومناقشاته وتعليمه وكتابات بلغته القومية وبشكل سليم صحيح أفضى ذلك الى الارتفاع بلغة الجماهير الذين يقتدون بمن هم أعلى منهم مكانة وثقافة ومرتبة ويلتقطون تعبيراتهم ومفرداتهم التي يستعملونها ويتأثرون ببيانهم الذي يسمعون أو يقرؤونه فالتعليم باللغة العربية في جميع فروع ودرجاته سبب لذيوع العلم العربي وتطوره ولنشره وبثه بين الناس والارتفاع بمستواهم الفكري والبياني . يضاف الى ذلك ما يتعلق بوسائل الاعلام من مجلات وصحف واذاعة سمعية وبصرية . كذلك الناشء الذي يشب وهو يسمع لغة مبينة صقلها العلم وهذبها المعرفة يغدو متمرساً بها ولاقناً لمفرداتها ومتفتحاً عقله وملكاته للاستفادة من مضامينها العلمية والفكرية والفنية . ولهذا نرى أن النهوض بالفكر لدى الشعب يتهيأ من الأعلى أي على طريق التثقيف والتعليم في الجامعات واعداد رجال الفكر والعلم من أطباء ومهندسين ومحامين وأساتذة وأدباء وغيرهم قد ملكوا زمام البيان في لغتهم القومية .

ولقد أدركت الشعوب هذه المزية فعمدت على الأغلب الى التعليم في جامعاتها ومعاهدها العالية بلغاتها القومية حتى لو كانت هذه اللغات ذوات حظوظ ضئيلة ومتفاوتة من التقدم بالقياس الى بعض اللغات الحديثة الشائعة التي يرجع سر تقدمها الى تقدم أبنائها لا الى خصائصها الذاتية . ذلك أن اللغات خصائص ذاتية جوهرية وخصائص عارضة سطحية . فالخصائص العارضة متعلقة بالمرحلة الاجتماعية والثقافية التي وصل اليها الشعب . فاذا تقدم الشعب تقدمت لغته بتقدمه . والخصائص الذاتية ما كان أصيلاً من مرونة وغنى وطواعية وسهولة اشتقاق ونحت وقياس وتقبل وفي رأينا لا توجد لغة فوق الأرض تعدل اللغة العربية في هذه المزايا وفي غيرها أيضاً .

ان الفتى الذي ألمّ المأماً كافياً بقواعد لغته وبأصول التعبير الصحيح فيها يسهل عليه في الغالب التبريز في اتقان اللغات الأخرى وفي العلوم أيضاً لأن اتقانه لغته في سن نشوئه دليل على جودة ملكاته الفكرية ومُشْعِر بحسن مواهبه الأصلية.

ولهذا كان كل شعور بالعجز دليل الوهن والأفن وعدم الكفاية العقلية • بل نرى فوق ذلك أن المصاعب التي قد يصادفها المثقف في ميدان الابداع والابتكار نوع من التحديّ للمكاته وقواه الفكرية • وكثيراً ما أفاد التحدي في ابراز القيم الشخصية وفي شحذ مواهب الأفراد والجماعات • وشد ما قيل بين الناس : ان الحاجة أم الاختراع • ونحن نقول : ان الصعوبة المعترضة والصبر دونها والتغلب عليها مفتاح النجاح •

نحن ندرك توارى اللغة العربية منذحين عن ساحة الحضارة الحديثة كما ندرك تلكوها في مجارة المصطلحات الحديثة التي غدت كالسيل الهادر والآتيّ المستفحل في مجال العلوم والتكنولوجيا الحديثة حتى صرف الأساتذة والمشرفين على الجامعات العربية عنها الى لغات أجنبية أهمها اللغة الانكليزية • وربما خيل الأجنبي للعربي صعوبة العلم بلغته وشدة المشقة في سبيل غير معبد ولا مذل • ولكن هذا لا يليق بالناشيء العربي اذ هو أكبر همة وأشد ذكاءً وأوسع ادراكاً من أمثاله الأجانب • وهو يستطيع أن ينهض بالأعباء الكبيرة الملقاة على جيله والمتحصلة عن صروف ماضية منتهية • ولا بد من الاقبال والجرأة • وقديماً قال الشاعر العربي :

لا تكوننّ للأمور هيوباً فالى خيبة يصير الهيوب

ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تعذر كان شأنه فيما قال القدماء كالقائص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائباً اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعاً • كذلك العلم صعب على المقصر سهل على المجد • ولا يبعد شأو على صاحب الهمة ولا تشحط غاية على الراغب في الوصول • لقد ذكر الجوزجاني أن شيخاً لغوياً هو أبو منصور الجبان التفت مرة الى ابن سينا قائلاً انك فيلسوف حكيم ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها • فاستنكف أبو علي من هذا الكلام وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ثم تحدى أبا منصور في اللغة وفاز عليه • نحن لا نطلب الى الناشئ أن يكون لغوياً كالشيخ الرئيس ولا مبيناً في كل ميدان مثله • ولكن لا بد للعالم من اتقان لغة قومه والتعليم والبحث فيها على الرغم من العقبات في جميع اللغات لا في اللغة العربية وحدها •

بل على العكس نجد اللغة العربية عند التمكن منها مواتية لكل مقصد ومسعفة في الوصول الى كل هدف • منذ الذي لم يطلع على النص الذي كتبه

البيروني في مقدمة كتابه « الصيدنة » يعلي فيه بيان اللغة العربية حين كثر النقل والترجمة اليها فازداد المنقول والمترجم بها جمالاً واتساقاً : « والى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلّت في الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة ، وان كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع آلائها وأشكالها . وأقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب والزرافة في العراب ثم متنقلة الى العربية والفارسية ، فانا في كل واحدة دخل ولها متكلف . والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسية . »

بل نجد أبا الريحان في مستهل كتابه « تحديد نهاية الأماكن » يندد باستعمال الباحثين لبعض الألفاظ اليونانية التي دخلت أول الأمر الى كتب المترجمين الأوائل ليهوّلوا بها على الناشئة دون أن يعرفوا المقابيل العربي لها أو يضعوه بالضبط فهو يقول: « ونحن نراهم يستعملون في الجدل وأصول الكلام والفقه طُرُقَه (طرق المنطق) ولكن بألفاظهم المعتادة فلا يكرهونها . فاذا ذكر لهم إيسا غوجي وقاطيغورياس وبساري أرمنياس وأنولوطيقا رأيهم يشمئزون عنه و (ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت) (٤٧ - ٢٠) وحق لهم . فالجناية جنائية المترجمين ، اذ لو نقلت الأسماء الى العربية فقليل كتاب المدخل والمقولات والعبارة والقياس والبرهان لوجدوا متسارعين الى قبولها غير معرضين عنها . »

هذا واذا تقدم الغرب في الوسائل التقنية والعلوم المادية فانا ما نزال نزع أن الشرق متقدم على الغرب في القيم الانسانية والمزايا الروحية والشمائل الاجتماعية من علائق التعاطف في الأسرة ومن محبة الانسان للانسان ومن اعلاء شأن العلم والمعرفة ومن غوث الملهوف وعون الضعيف وهداية الحائر ومد يد المعونة للعاجز والبر بالشيوخ والوالدين والحدب على الصغار والتمسك بمكارم الأخلاق . واذا وجدنا لذلك شذوذاً فانه طراً بطريق الاذاعة والسينما والقصص السيئة « السادية » . ان اثاره الرعب والتقتيل الجماعي والصمت عن الاجرام والتمييز العنصري وغش الشعوب وسرقة أراضيها وتخريب حضاراتها وعبادة الدرهم والدينار كل هذه الأمور بعيدة من تصورات الشرق ومفاهيمه .

ان البلاد العربية غنيّة بممكّنتها المتنوعة الغزيرة . وهي تتسع اتساعاً وافياً لمختلف الثقافات الأجنبية وهي قادرة على تمثيلها مع الزمن . وكما أن الأغراس في الحدائق تحتاج الى برهة للتلاؤم هي والأحوال الخارجية من تربة ورطوبة وحرارة وتغذية ورعاية وتعهد دائم لكي تنمو وتقوى وتتفرع وتزهر وتؤتي بالثمار الزكية تحتاج الأجيال الى فترات زمنية ذات ايقاع مناسب لكي تتفاعل ثقافتها وتتهيأ للنهوض والتفتح وانشاء حضارة جديدة أصيلة . هكذا تم نهوض الأمم وظهورها بالتدرج على صعيد الحضارة العالمية . ولكنه تم أيضاً بالدعم الفعال من قبل المسؤولين والتعهد الدائم لنسخ الحضارة المتولد وتشجيع الأكفاء في كل ميدان . ولكل شعب مزايا يستطيع أن يظهرها في تحقيق مواهبه ان لم تحل دونه حوائل داخلية أو خارجية ولم تضلله تربية خاطئة ولا زيغ ناكب ولم يضيعه استلاب لحقيقته القومية والانسانية . ولا مجال للاستلاب الثقافي اذا ارتكز النشء على المبادئ الصحيحة والتوجيه السليم وتم التعليم باللغة القومية وانتشرت الأفكار والثقافة والعلوم ونمت المواهب بين الناس وتحققت ملكاتهم ومواهبهم في طريق التقدم والعلاء . وعلى العكس يقضي التعليم باللغة الأجنبية على هذه المواهب والملكات ويجعلها ذليلاً للحضارة الأجنبية وملحقة بها الحاق العمال في البلاد الرأسمالية الغربية بأصحاب المصانع وأرباب رؤوس الأموال .

ومن دواعي الفخر أن جامعاتنا في لقطر العربي السوري كانت أسبق الجامعات العربية وما تزال في الحرص على التعليم بالعربية السليمة الصحيحة . ومع ذلك فالفرق كبير في هذه الحال بين أوائل هذا العصر والوقت الحاضر اذ غدت العربية أقرب ما تكون الى العامية والى الركاكة والى التعثر في تشتت المصطلحات سواء أكان ذلك في التدريس أم في كتابة الكتب . وهذا يلقي عبئاً ثقيلاً على الطالب النبیه اذ يضطر الى أن يبذل جهوداً ضخمة في تلافي هذا الخلل التعليمي الشائن ، كما لا بد من مداواة هذا السقام التعليمي العضال الذي لا يشفيه الا تلاقي جهود الأساتذة الأكفاء وإدارة جامعية موفقة حازمة تنظر في حقائق التعليم وبواطن الأمور والأساليب الناجعة ولا تتعلق بالمظاهر .

والمهم هو ارساخ التفكير العلمي في أذهان الأجيال العربية المقبلة بحيث يغدو التفكير العلمي والتعبير العربي صنوين متحدين ملتحمين حافزين على الابداع والابتكار الى جانب الاطلاع الدائم على ما يجد من بحوث علمية على الصعيد الانساني العالمي بأي لغة كانت .

ان التعاون قوة من أكبر القوى وهو سبيل النجاح والتأييد . ونحن العرب في هذا العصر أحوج ما نكون الى التعاون والتعاقد في كل مضمار ولا سيما مضمار البحث والعلم لتحقيق مقوماتنا الذاتية وهوياتنا الثقافية وللحاق بركب الحضارة العالمية الراهنة والمشاركة فيها مشاركة الند للند لا مشاركة البلد المنفرد بشكل الأجير المستغل في مطامع المجموعة العالمية .

ويساورنا اليقين أن الأجيال العربية الحديثة والمقبلة ستحمل الأعباء الضخمة في مجال العلم والتعليم وستنقل المعارف العالمية الى لغتهم وسيؤصلون تلك المعارف تأصيلاً عربياً اسلامياً ويتجاوزونها الى المبتكر الطريف .



مهما قيل في هذا الموضوع الرحب فاني متفائل بالنهوض القومي ، ومشغوف بالتقدم الانساني ، ومفرم بالتراث العالمي ولا سيما العربي الاسلامي . واني لأتغنى في الختام فاقول :

وأحرق في حبي التراث حشاشتي	وبذلت فيه جوانحي ومجاجري
ولبثت طول العيش أغشى لُجته	وأميز فيه وارداً من صادر
وأطالع الدر الوضيء ببحره	وأبث فيه مشاعري وخواطري
الشمس والقمر المنير سناهما	يحكي البديع من التراث الباهر
قلبي المحب على المدى متفائل	أورثت ذلك كابرأ عن كابر
حاسبت نفسي في السنين أعدّها	فاذا شؤون الحب ملء دفاتري
ما حالت السبعون دون صبابتي	اني كبرت' وليس ذاك بضائري
القلب ليس يشيب ان شاب الفتى	بل قد يضم ذخائراً لذخائري
ومعبتي هي للعروبة كلها	والعلم' والايمان كل شعائري